الانتحار

ـ ٥ ـ

قال المسيَّبُ بنُ رافع : وأطرقَ النَّاسُ قليلاً بعد خَبَرِ (أبي محمَّدٍ البَصْريِّ) إذ كان كلٌّ منهم قد جَمَع بالَه لِما سمع ، وأخذ يَحْدِسُ في نفسه ، ويراجعُها الرَّأيَ ، وكان المجلسُ قد امتدَّ بنا منذ العصر وما يكاد النَّهارُ يُشْعِرُنا بإدباره ، حتَّى اعترَضَتْ في شمسه الغُبرةُ التي تَعتريها ؛ إذا دَنتْ أن تَغرُب . وكان إلى يساري فتًى رَيَّانُ الشَّباب ، حسَنُ الصُّورة ، وَضيءٌ ، مُشرِقٌ ، له هيئةٌ ، وسَمْتٌ ، أقبلَ على الأيَّام ، وأقبلت الأيَّامُ عليه .

فسمعني أطِنُّ على أذن (مجاهدٍ الأزديِّ) ؛ وكنت أعرفُه شاعراً في كلامه وشاعراً في قلبه ؛ فقلت له : إنَّه لم يبقَ من النَّهار يا مجاهد ! إلا مثلُ صبرِ المحبِّ دَنا له المَوْعِد ؛ ولم يبقَ من الشَّمس إلا مثلُ ما تَتلفَّفُ صاحبتُه ، تأخذُ عليها ثوبَها ، وغَلائلَها ، ولكن بعد أن تُسقطها من هنا ، ومن هنا ؛ لترى جمالَ جسمها هنا ، وهنا !

فاهتزَّ الفتى لهذه الكلمات ، وسالت الرِّقَّةُ في أعطافه ، وقال : يا عمُّ ! أما ترى ما بقي من النَّهار كأنَّه وجهُ باكٍ ، مَسَحَ دموعَه ، وليس حوله إلا كآبةُ الزَّمن . . . ؟

قلت : كأنَّ لك خبراً يا فتى ! فإن كان شأنُك ممَّا نحن فيه فَقُصَّه علينا ، وعَلِّلْنا به سائرَ الوقت إلى أن تجِبَ الشَّمس[1] ، ولعلك طائرٌ بنا طَيرةً فوق الدُّنيا .

قال : فَمَهْ ؟

قلت : تقومُ فتتكلم ، فإنِّي أرى لك لساناً ، وبياناً .

قال : أو يَحْسُنُ أن أتكلم في المسجد عن صَرْعةِ الحبِّ ، وصريعِه ، وعاشقةٍ ، وعاشق ؟

(١) « تجب الشمس » : تغيب .

فبادر مجاهدٌ ، فقال : ويحك يا فتى ! لقد تَحَجَّرْتَ واسعاً ، إنَّ المؤمن ليصلِّي بين يدي الله وكتابُ سيئاته في عنقه منشورٌ مقروءٌ . وهل أوقاتُ الصَّلاة إلا ساعاتٌ قلبيَّة لكلِّ يومٍ من الزَّمن ، تأتي السَّاعةُ ممَّا قبْلها ، كما تأتي توبة القلب ممَّا عملَ الجسم ؟ إنَّما يتلقَّى المسجدُ مَنْ يدخلُه لساعتِه التي يدخله فيها ، ولو أنَّه حاسَبه عن أمسِ ، وأوَّلَ منه ، وما خَلاَ من قبلُ ؛ لطرَدهُ من العَتَبة ! إن المسجد يا بنيّ إنما يقول لداخلِه : ادخلْ في زمني ودَعْ زمنَك ، وتعالَ إليَّ أيُّها الإنسانُ الأرضيُّ ! لتتحقَّقْ : أنَّ فيك حاسَّةً من السَّماء ، وجئْني بقلبك وفكرك ، ليَشْعُرا ساعةً : أنَّهما فيَّ ، لا فيك[1] . ولسنا الآن يا بنيَّ في مُتَحَدَّثٍ كنَديِّ[2] القوم يتطارحون فيه أخبارَهم ، بل نحن في مجلسِ عالمٍ تكلمتْ فيه رَقَبةُ هذا ، ورقبةُ هذا بما سمعتَ ؛ فقُم أنتَ ، فاذكرْ عِلمَ قلبِك ، وقُصَّ علينا خبرَ طيش الحبِّ ، والشَّباب الذي يُشبه الكلامُ فيه أن يكون كلاماً عن الصُّعود إلى القمر ، والقبضِ من هناك على البرْق !

* * *

قال المسيَّب : فانتهضَ الفتى ، ورأيت مجاهداً يتنهَّد ، كأنَّما انصدعتْ كَبِدُه ، فقلت : ما بألك ؟ قال : إنَّ شبابي قد مرَّ عليَّ السَّاعةَ ، فنَسَمْتُ منه في بُرْدَةِ هذا الفتى ، ثُمَّ فقدْتُه فقداً ثانياً ، فهَرِمْتُ هَرَماً ثانياً ، وجاءني الحزنُ من إحساسي بأنِّي شيخٌ ، حُزْنَ مَن هَمَّ أن يدخلَ بابَ حبيبٍ ثم رُدَّ . . . !

وتحدَّث الفتى ، فإذا هو يُديرُ بين فَكَّيه لسانَ شاعرٍ عظيمٍ ، يتكلَّم كلامَه بنفسَين : إحداهما بَشَريةٌ تصنع المعنى ، واللفظ ، والأخرى عُلْويةٌ تُلقِي فيها النَّارَ ، والنور .

قال : إنَّ لي قصَّةً أيُّها الشَّيخ ، لم يبقَ منها إلا الكلامُ الذي دُفنتْ فيه معانيها ؛ وقد تأتي القصَّةُ من أخبار القلب مُفْعَمَةً بالآلام ، والأحزان ، لا يُراد بآلامها ، وأحزانها إلا إيجادُ أخلاقٍ للقلب يعيشُ بها ويتبدَّلُ . والَّذي قُدِّر عليه الحبُّ

---

(١) ستأتي فلسفة المسجد في مقالات أخرى مما يجمع هذا الكتاب ، وانظر مقالة : (الله أكبر) . (ع) .

(٢) « ندي » : الندي : مجلس القوم ، ومجتمعهم ، ومُتحدَّثُهُمْ .

لا يكون قد أحبَّ غيرَه أكثرَ مما يكون قد تعلَّم كيف يَنسى نفسَه في غيره ، وهذه كما هي أعلى درجاتِ الحبِّ ؛ فهي أعلى مَراتب الإحسان .

ومتى صَدق المرءُ في حبِّه كانت فكرتُه فكرتَين : إحداهما فكرةٌ ، والأخرى عقيدةٌ ، تجعلُ هذه الفكرةَ ثابتةً ، لا تتغيَّر ؛ وهذه كما هي طبيعةُ الحبِّ فهي طبيعةُ الدِّين .

ولا شيءَ في الدُّنيا غيرُ الحبِّ يستطيع أن يَنْقُلَ إلى الدُّنيا ناراً صغيرةً ، وجنَّةً صغيرةً ، بقدْر ما يكفي عذابَ نفسٍ واحدةٍ ، أو نعيمَها ! وهذه حالةٌ فوق البَشريَّة .

والفضائلُ عامَّتُها تعمل في نقلِ الإنسانَ من حيوانيته ، وقد لا تَنقل إلا أقلَّه ، ويبقى في الحيوانيَّة أكثرهُ : ولكنَّ الحبَّ الصَّادقَ يقتلع الإنسانَ من حيوانيته بمرَّةٍ واحدةٍ ، بَيْدَ أنَّه لا يكون كذلك إلا إذا قتَله بآلامه ؛ فهو كأعلى النُّسُكِ ، والعبادة .

كان من خَبري : أنِّي دُعيتُ يوماً إلى ما يُدْعى لمثْلِه الشَّبابُ في مجلس غناءٍ ، وشراب . يالَهُ من مجلس ! وقد قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] ، والبعوضةُ في قصَّتي أنا كانت امرأةً نَصرانيَّةً . . . قَيْنَة فلانٍ المغنِّية ، الحاذقة ، المحسِنة ، المتأدِّبة ، تحفَظ الخبرَ ، وتروي الشِّعر ، وتتكلَّم بألفاظٍ فيها حَلاوةُ وجهها ، وتخلُقُ النُّكتةَ إذا شاءت خَلقَ الزَّهرة المتفتِّحةِ عليها سَقِيطُ النَّدَى ؛ وتجِدُّ بالحديث ما شاءت ، وتَهزِل ، فتجعل للكلام عقلاً ، وشهوةً ، تُضاعفُ بهما مَن تحدِّثه في شهواته ، وعقله !

وستجري في قصَّتها ألفاظُ القصَّةِ نفسِها ، لا أتأثَّمُ من ذلك ، ولا أتذمَّم ؛ فقد ذكر اللهُ الخمرَ بلفظ الخمر ، ولم يَقُل : « الماء الذي فيه السُّكْر » ، ووَصفَ الشَّيطانَ ، ولم يقل : « الملك الذي عمِل عملَ المرأةِ الحسناء في تكبُّرها » ، وذكر الأصنامَ بأنَّها الأصنام ، ولم يُسمِّها : « حاملة السَّماء التي يصنعها الإنسان بيديه » وحكايةُ ما بين الرَّجل والمرأة هي كلامٌ يقبِّل بعضُه بعضاً ، ويلتزِمُ ، ويتعانَق !

قال المسيَّب : فتبسَّم إمامُنا ، ونظرَتْ عيناه تسألان سؤالاً . أمَّا مجاهدٌ الأزديُّ فكان مِنْ هزَّةِ الطَّرَب كأنَّه على قَتَب[1] بَعير ، وقال : لله دَرُّه فتًى ! إن هذا لبيانٌ كحيلُ العَين . . .

---

(١) « قتب » : القتب : الرَّحل الصغير على قَدْر سنام البعير .

ثُمَّ قال الفتى : وذهبتُ إلى المجلس ، وقد جعلَتْه هذه المغنِّيةُ من حواشيه ، وأطرافه كأنَّه تفسيرٌ لها هي . أمَّا هي فجعلت نفسَها تفسيراً لكلمةٍ واحدةٍ هي : « اللَّذَّة . . . » .

قال المسيِّب : وطرِب مجاهدٌ طرباً شديداً ، وسمعتُه يُخافِت بصوته يقول : « لله درُّها امرأة ! هذه ، هذه عَدُوَّةُ الحُورِ العِين ! » .

ثمَّ قال الفتى : وتَطَرَّبَ جماعةُ أهلِ المجلس إلى الشُّرب ، وما ذقتُ خمراً قطُّ ، ولن أتذوَّقَها ؛ ولو شربها النَّاسُ جميعاً . ولن أذوقَها ؛ ولو انقطع الغيثُ ، ولم تَمْطُر السَّماءُ إلاَّ خمراً ؛ فإنِّي مذ كنت يافعاً رأيتُ أبي يشربُها ، وكانت أمِّي تلومه فيها ، وتشتدُّ في تعنيفه ، وتحتَدِم ، وكانا يتشاحنان ، فينالُها بالأذى ، ويَنْدَرِىءُ[1] عليها بالسَّبِّ ، وفُحْشِ القول . وسَكِر مرَّةً ، وغلبه السُّكرُ حتَّى ثارت أحشاؤه ، فَذَرَعَه القَيْءُ ، فتوهَّمني وِعاءً ، وجاء إليَّ وأنا جالسٌ ، فأمسك بي وقاءَ في حِجْري ، حتَّى أفرغ جوفَه ؛ وثارت أمِّي لتنتزِعَه ، وأنشأتْ تُعالجه عنِّي ، فَتصارَع جنونُه وعقلُها ، حتَّى كفَأته على وجهه كالإناء ؛ فالتوى كالحيَّة بطناً لظهرٍ ، واستجمَع كالقُنفذ في شَوكه ، ثُمَّ لكَزَها برجله أسفلَ بطنِها ، فانقلبت ، وأصاب رأسُها إجَّانةَ[2] العجين ، فتثلَّم تثليمَ الإناء ، كأنَّما شُدِخَ ضرباً بحجَر ، وانتثَر دماغُها على الأرض أمام عينيَّ ، ورأيتها لم تزد على أن دَفَعَتْ بإحدى يديها في الهواء ، وضمَّت بالأخرى إلى صَدْرِها ، تتوهَّم : أنها تحميني ، وتدفعُه عنِّي ؛ ثمَّ سَكنتْ ، ولو لم تَمُتْ من الشَّجَّةِ في رأسِها ؛ لماتتْ من الضَّربة في بطنها !

* * *

قال المسيِّب : وأطرق الفتى هُنَيهةً ، وأطرق النَّاسُ معه ، فرفع مجاهد صوتَه وقال : رحمها الله ! فقال النَّاسُ جميعاً : رحمها الله !

ثُمَّ قال الفتى : وكان عامَّةُ مَن في المجلس يعرفون ذلك منِّي ، ويعرفون : أنَّه لو ساغ لإنسانٍ أن يشربَ دمَ أمِّه ما شربتُ أنا الخمر . فقالوا للمغنِّية : إن هذا

(١) « يندرئ » : يندفع .

(٢) هي ما يُعجن فيه العجين ، وتُغسل فيه الثياب ، وقد يُوضَعُ فيه الماء ؛ ليتوضَّأ منه ، وتتخذ من حجر ، أو خزف ، أو غيرهما . (ع) .

لا يدخلُ في ديوانِنا[١] . فنظرَتْ إليَّ ، وهربْتُ أنا من نظرتِها بإطراقةٍ ، ثُمَّ قالت : تَشربُ على وجهي ؟ فقلتُ لها : إنَّ وجهَكِ يقول لي : لا تشربْ . . . فتضاحكَتْ ، وقالت : أهو يقول لك غيرَ ما يقول لهؤلاء ؟ فهربتُ من كلامها بإطراقةٍ أخرى ، ووَصلَت الإطراقتان ما بيني وبين قلبها ؛ وتنبَّه فيها مثلُ حُنوِّ الأمِّ على طفلها إذ آذته بلسانها ، فأطرق ساكتاً يشكوها إلى قلبها !

والتفتتْ لمن حضر ، وقالتْ لهم : لست أَطِيبُ لكم ، ولا تنتفعون بي إلا أن تشربوا لي ، ولهُ ، ولأنفسكم ، وانحطَّ عليهم السَّاقي ، فشربوا أرطالاً ، وأرطالاً ، وهي بين ذلك تغنِّيهم ، وقد أقبلت عليهم ، وخلا وجهُها لهم من دُوني ، وإنَّما تُخالِسُني النَّظرةَ بعد النَّظرة .

فوسوسَ لي شيطاني : أنْ تَشدَّدْ مع هذه بمثل عَزْمتِكَ مع الخمر ، فإنَّما هما شيءٌ واحد . ولكنِّي كنتُ أُحِدُّ النَّظرَ إليها ، فمرَّةً أوامِقُها نظرةَ المحبِّ للحبيب ، ومرةً أغضِي عنها بنظرةٍ لا تنظرُ ؛ وكأنِّي بذلك كنت آخذها ، وأدَعُها ، وأَصِلُها ، وأهجرُها . فقالت لي كالمُنكِرَة عليَّ : ما بالُك تنظر إليَّ هكذا ؟! ولكن هيئةَ وجهها جعلتْ المعنى : لا تنظرْ إليَّ إلا هكذا . . . !

وأسرعَ الشَّراب في القوم ، وأفرطَ عليهم السُّكرُ ، فبقيتْ لي وحدي وبقيتُ لها وحدَها ؛ ثمَّ تناولتْ عودَها ، وضمَّتْه إليها ضمّاً شديداً أكثرَ من الضَّمِّ . . . والمستهِ صدرَها ، ونَهديها ، ثُمَّ رَنتْ إليَّ بمعنًى ، فما شككْتُ : أنَّها ضمَّةٌ لي أنا والعود ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هذا الصَّوت :

ألا قاتلَ اللهُ الحمامةَ غُدْوةً ... على الغُصنِ ؛ ماذا هيَّجتْ حين غنَّتِ ؟
فمَا سكتتْ حتَّى أوَيْتُ لِصَوتِها ... وقلتُ : تُرى هذي الحمامةُ جُنَّتِ ؟
ومَا وَجْدُ أعرابيةٍ قَذفتْ بها ... صُروفُ النَّوى مِنْ حيث لم تَكُ ظنَّتِ
إذا ذَكَرَتْ ماءَ العِضاهِ وطيِّبه ، ... وبَرْدَ الحِمَى مِنْ بَطنِ خَبْتٍ ، أرنَّتِ[٢]
بأكثرَ منِّي لَوعةً ، غيرَ أنَّني ... أُجمْجِمُ[٣] أحشائي على ما أجنَّتِ !

---

(١) تعبير قديم كانوا يريدون به الشرب ، كأنه ديوان ملك . (ع) .
(٢) « خبت » : هو المنخفض من الأرض . « أرنت » : صاتت ، وأخرجت صوتاً حزيناً .
(٣) « أجمجم » : جمجم الشيءَ في صدره : أخفاه ، ولم يُبْدِه .

وغَنَّته غِناءً من قلبٍ يئنُّ ، وصدرٍ يتنهَّد ، وأحشاءٍ لا تُخفي ما أجنَّتْ ؛ وكانت ترتفع بالصَّوت ، ثُمَّ كأنَّما يهمي[1] الدَّمعُ على صوتها ، فيرتَعِش ويتنزَّل قليلاً قليلاً حتَّى يئنَّ أنينَ الباكية ، ثُمَّ يعتلجُ في صدرها مع الحبِّ ، فيتردَّد عالياً ، ونازلاً ، ثم يرفضُّ الكلامُ في آخره دموعاً تجري .

* * *

قال المسيَّب : فنظر إليَّ مجاهد ، وقال : عدُوَّةُ الجنَّةِ واللهِ هذه يا أبا محمد ! لا تقبلُ الجنَّةُ من يكون معها . تقول له : كنتَ مع عدُوَّتي !

ثُمَّ قال الفتى : وكان القوم قد انتَشَوْا ، فاعتراهم نصفُ النَّوم وبقي نصفُ اليَقَظةِ في حواسِّهم ، فكلُّ ما رأَوْه منَّا رأوه كأحلامٍ لا وجود لها إلا خلف أجفانهم المُثْقَلةِ سُكراً ، ونُعاساً . ووثبت المغنِّيةُ ، فجاءت إلى جانبي والتصقتْ بي ، وأسرع الشَّيطانُ فوسوسَ لي : أنِ احذرْ فإنَّك رجلُ صِدْقٍ ، وإذا صدقتَ في الخمر ، فلا تكذبنَّ في هذه ، ولئن مَسسْتَها ؛ إنَّها لضَياعُكَ آخِرَ الدَّهر !

فعجبتُ أشدَّ العجب أن يكون شيطاني أسْلَمَ ، وأُعِنْتُ عليه ، كما أعين الأنبياء على شياطينهم . ولكن اللَّعينَ مضى يصُدُّني عن المرأةِ دون معانيها ، وكان منِّي كالذي يُدني الماءَ من عَيْنَيْ القتيل المتلهِّب جَوفُه ، ثم يجعله دائماً فَوْتَ فمه ، ولقد كنتُ من الفُحولةِ بحيث يبدو لي من شدَّةِ الفورةِ في دمي وشبابي : أنِّي أجمع في جسمي رجالاً عِدَّة ، ولكن ضَرَبني الشَّيطانُ بالخجل ، فلم أستطع أن أكونَ رجلاً مع هذه المرأة .

وعجبتْ هي لذلك ، وما أسرعَ ما نطق الشَّيطانُ على لسانها بالموعظة الحسنة . . . ! فقالت أحببتُك ما لم أحِبَّ أحداً ، وأحببتُ خجَلكَ أكثرَ منك ، فما يسرُّني أن تأثم فيَّ فتدخلَ النَّارَ بحبِّي ، ولو أنَّك ابتعتَني من مولاي ؟ فقلت : بكم اشتراكِ ؟ قالت : بألف دينار ! قلت : وأين هي منِّي ؛ وأنا لو بعتُ نفسي ما حصَلتْ لي ؟

فتمَّمَ الشَّيطانُ موعظتَه ، وقالت ، وأشارت إلى قلبها : إنَّ قلبي هذا قَبِلَكَ غنيّاً

---

(١) « يهمي » : يسيل .

كنتَ ، أو فقيراً ، وأحسَّ بك وحدك حُبَّ العذراء أوّلَ ما تحبُّ ، وأنا ـ كما تراني ـ أعيش في السَّيئات كالمُكْرَهةِ عليها ، فسأعمل على أن تكون أنت حسَنَتي عند الله ، أذهبُ إليه حاملةً في قلبي حُبي إيَّاك ، وعفَّتي عنك ، ولئن كانت عفَّةُ من لا يشتهي ، ولا يجدُ تعدُّ فضيلةً كاملةً ، إنَّ عفَّةَ من يجدُ ، ويشتهي لتُعَدُّ ديناً بحاله . ولا يزالُ حبِّي بِكراً ، ولا أزال في ذلك عذراءَ القلب ، وهؤلاء قد نزعوا الحياءَ عنِّي من أجْلِ أنفسهم ، فالْبِسْنِيهِ أنتَ من أجلك خاصَّة ؛ وإن قوَّة حبي كالَّذي سيتألم بك ، ويتعذَّبُ منك لِطُولِ ما يصبرُ عنك ، ستكون هي بعينها قوَّةً لفضيلتي ، وطهارتي .

ثُمَّ تناولتْ عودَها ، وسوَّته ، وغنَّتْ :

فلــو أنَّــا علــى حَجــرٍ ذُبِحْنــا   جَرى الــدَّمَيـان بـالخبـرِ اليقيـنِ[1]

وجعلتْ تتأوَّه في غنائها ، كأنها تُذبح ذبحاً ، ثُمَّ وضعت العُوْدَ جانباً ، وقالت : ما أشقاني ! إذا اتفقت لي ساعةِ زواجي في غير وقتها ، فجاءت كالحلم يأتي بخيال الزَّمن ، فلا يكون فيه من الأشياء إلا خيالُ الأشياء .

ثُمَّ سألتني : ما بالكَ لم تشرب الخمر ، ولم تدخل الدِّيوان ؟ فبدرَ شيطاني المؤمن . . . وساق في لساني خبرَ أمي ، وأبي ، فانْتَضَحَت عيناها باكيةً ، وتمَّ لها رأيٌ فيَّ كرأيي أنا في المسكر ؛ وكان شيطانُها بعد ذلك شيطاناً خبيثاً مع أصحابها ، وبَطْريقاً زاهداً معي أنا وحدي !

ورأيتُها لا تجالسني إلا مُتَزايلة[2] ، كالعذراء الخَفِرة ؛ إذا انقبضتْ ، وغطَّت وجهَها ، وصارت تخافني ؛ لأنَّها تُحبُّني ، وهَيَّبني الشَّيطانُ إليها ، فعادت لا ترى فيَّ الرَّجلَ الذي هو تحت عينيها الثَّيِّبتين . . . ولكنِ القِدِّيسَ الَّذي تحت قلبِها البِكر .

---

(١) كانت العربُ تزعم : أنه إذا قُتِل اثنان ، فجرى دماهمـا على طريقٍ واحد ، ثم التقيا ؛ حُكم عليهما أنهما كانا متحابَّين ، فإن لم يلتقيا ؛ حُكم عليهما أنهما كانا متشانِئَيْن . وما أجملها خرافة ، وأشعرها ! (ع) .
قلت : البيت في لسان العرب (١٤/٢٦٨) .

(٢) « متزايلة » : مُتَنحِّية .

ولم يَعُدْ جمالي هو الذي يُعجبها ، ويُصْبِيها ، بل كان يعجبها منِّي أنِّي صنعة فضيلتها التي لم تَصنع شيئاً غيري .

وانطلق الشَّيطانُ بعد ذلك فيَّ ، وفيها بدهائه ، وحنكَتِه ، وبكلِّ ما جَرَّب في النِّساء ، والرِّجال من لَدُن آدمَ ، وحوَّاءَ إلى يومي ، ويومها ! . . . فكان يجذبني إليها أشدَّ الجذب ، ويدفعها عنِّي أقوى الدَّفع ، ثُمَّ يُغريني بكلِّ رذائلها ، ولا يغريها هي إلا بفضائلي . وألْقى منها في دمي فكرةَ شهوة مجنونة متقلِّبةٍ ، وألقى منِّي في دمها فكرةَ حكمةٍ رزينةٍ ، مستقِرَّة . وكنت ألقاها كلَّ يومٍ ، وأسمع غناءها ؛ فما هو بالغناء ، ولكنَّه صوتُ كلِّ ما فيها لكلِّ ما فيَّ ، حتَّى لو التصقَ جسمُها بجسمي ، وسَارَّ البَدَنُ البدنَ ، وهَمَسَ الدَّمُ للدَّم ؛ لكان هو هذا الغناء الَّذي تغنِّيه .

وأصبحت كلَّما استقمت لحبِّها تَلَوَّتْ عَلَيَّ ؛ إذ لست عندها إلا الأملَ في المغفرة والثواب ، وكأنَّما مُسخْتُ حَبْلاً طولُه من هنا إلى الجنَّة لتتعلَّق به . وعاد امتناعُها منِّي جنوناً دينيّاً ما يفارقُها ، فابتلاني هذا بمثل الجنون في حبِّها من كلَفٍ ، وشغَفٍ .

وانحصرتْ نفسي فيها ، فرجعت معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظر إلى مَدِّ بصره من الأفق ، فيحكم : أنَّ هاهنا نهايةَ العالَم ، وما هاهنا إلا آخر بصرِه وأوَّلُ جهلِه . وانفلتَ منِّي زِمَامُ روحي ، وانكسر ميزانُ إرادتي ، واختلَّ استواءُ فكري ، فأصبحتُ إنساناً من النَّقائض المتعادية أجمعُ اليقين ، والشَّكَّ فيه ، والحبَّ ، والبغضَ له ، والأملَ ، والخيبةَ منه ، والرَّغبةَ ، والعُزُوفَ عنها ، وفي أقلِّ من هذا يُخْطفُ العقل ، ويَتَدَلَّه[1] مَنْ يتدلَّه .

ثم ابتُليتُ مع هذا اللَّمَمِ بجنون الغيظ من ابتذالها لأصحابها ، وعفَّتها معي ، فكنتُ أتطاير قِطَعاً بين السَّماء والأرض ، وأجِدُ عليها ، وأتنكَّرُ لها ، وهي في كلِّ ذلك لا تزيدني على حالةٍ واحدةٍ من الرَّهبانيَّة ؛ فكان يَطير بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلةً ، ثُمَّ إذا أنا رُمتُه استحال ثلجاً ، وقَرَّحَت الغَيرة قلبي ، وفتَّتَت كبِدي من عابدةِ الشَّيطان مع الجميع ، الرَّاهبةِ مع رجلٍ واحدٍ فقط ! . . .

ورجعت خواطري فيها ممَّا يُعْقَلُ ، وما لا يُعقل ؛ فكنت أرى بعضَها كأنَّه راجعٌ

(١) « يتدله » : دلَّهه العشق وغيره : حيَّره ، وأذهب عقله ، فهو مدلَّهٌ .

من سَفَرٍ طويلٍ عن حبيبٍ في آخر الدُّنيا ، وبعضَها كأنَّه خارجٌ من دار حبيبٍ في جِواري ، وبعضَها كأنَّه ذاهبٌ بي إلى المارستان . . . !

ورأيتُنا كأنَّنا في عالَمين لا صلةَ بينهما ، ونحن معاً قلباً إلى قلب ، فذهبَ هذا بالبقيَّة الَّتي من عقلي ؛ ولم أرَ لي مَنْجاةً إلا في قتْلِ نفسي ؛ لأزهقَ هذا الوحش الَّذي فيها .

وذهبتُ فابتعتُ شَعِيراتٍ من السُّمِّ الوَحِيِّ ؛ الذي يُعجِلُ بالقتل ، وأخذتُها في كفِّي ، وهممتُ أن أقْمَحَها ، وأبتلعَها ، فذكرتُ أمي ، فَظَهَرَت لخيالي مشدوخةَ الرَّأسِ في هيئة موتها ، وإلى جانبها هذه المرأةُ في هيئة جمالها ، وثَبَتَتْ على عيني هذه الرُّؤية ، وأدْمَنتُ النَّظرَ فيها طويلاً ، فإذا أنا رجلٌ آخرُ غيرُ الأوَّل ، وإذا المرأةُ غيرُ تلك ، وطَغَتْ عِبرة الموت على شهوةِ الحياة ، فمحتْها ، وصَحَّ عندي من يومئذٍ أن لا علاج من هذا الحبِّ إلا أن تُقرَن في النَّفس صورة امرأةٍ ميتةٍ إلى صورة المرأةِ الحيَّة ، وكلَّما ذُكِرَتْ هذه جِيءَ لها بتلك ، فإذا استمرَّ ذلك فإنَّ الميِّتة تميتها في النَّفس ، وتُميت الشَّهوةَ إليها ، ما من ذلك بُدٌّ ، فليجرّبه مَنْ شكَّ فيه .

وانفتح لي رأيٌ عجيبٌ ، فجعلتُ أتأمَّل كيف آمن شيطاني ، ثم كَفر بَعْدُ ، على أنَّ شيطانها هي كَفرَ في الأول ، ثمَّ آمن في الآخر ؟ فوالله ! ما كنتُ إلا غبياً خامدَ الفطنة ؛ إذ لم يَسْنَحْ لي الصَّوابُ حتَّى كدت أزهق نفسي ، وأخسر الدُّنيا والآخرة ؛ فإنَّ الشَّيطان ـ لعنه الله ـ إنَّما ردَّني عن الفاحشة ، وهي ذنبٌ واحدٌ ، ليرميني بعدها في الذنوب كلِّها بالموت على الكفر !

وردَّ إليَّ هذا الخاطرُ ما عَزَبَ من عقلي . ومَن ابْتُليَ ببلاءٍ شديدٍ يزلزل يقينَه ، ثمَّ أبصر اليقين ، جاء منه شخصٌ كأنَّما خُلِقَ لساعته ؛ فلعنْتُ شيطاني ، واستعذْتُ بالله من مكرِه ، وألقيت السُّمَّ في التراب ، وغيَّبْتُه فيه ، وقلتُ لنفسي : ويحكِ يا نفس ! إنَّ الحياة تعمل عملاً بالحي ، أفترضَين أن تعمل الحياةُ بأبطالها ورجالها ما عرفتِ ، وما علمتِ ، ثُمَّ يكون عملُها بك أنت القعودَ ناحيةً ، والبكاءَ على امرأةٍ ؟

أيَّتها النَّفس ! ما الفرق بين سرقة لحمٍ من دكان قصَّابٍ ، وبين سرقة لحم امرأةٍ من دار أبيها ، أو زوجِها ، أو مولاها . . . ؟!

أيَّتُها النَّفس ، إنَّ إيمانَ أسلافِنا معنا ؛ إنَّ الإسلامَ في المسلم .

* * *

قال المسيَّب : وهنا طاش مجاهدٌ ، واستخفَّه الطَّرب ، فصاح صيحةَ النَّصر : الله أكبر ! وجاوبه أهلُ المسجد في صيحةٍ واحدةٍ : الله أكبر ! ولم يكد يهتف بها النَّاس حتَّى ارتفعت صيحة المؤذِّن لصلاة المغرب : الله أكبر . . .

* * *